حكاية عن الأصابع الخمس

وجدي الأهدل*

فقمة هرمة أنا... ضاعت أيامي الطويلة في التنقل المضجر ما بين شواطئ جزيرة غرينلاند ومياه البحر.

انقضت زهرة العمر وأنا لا أفعل شيئاً سوى أن أفتح فمي وأبتلع ماءً مالحاً مثلجاً.

عيناي سئمتا من مناظر الشعاب المرجانية في الأسفل، وأنفي صار مزكوماً من عفونة الرمال اللبنية في الأعلى.

كم يثير اشمئزازي العيش ضمن قطيع أبله، لا يعرف معنى السعادة، ولا يبحث عنها.

اسمي "سبابة"، وسني سبعون عاماً، وأنتمي إلى نوع "الفقمة ذات الحلقات"، ويبلغ طولي متراً ونصف، ووزني قرابة الثمانين كيلوغراماً.

في الماضي السعيد، كنت أنا الفقمة الأجمل على كوكب الأرض. وأتمنى ألاَّ يتهمني أحد بالغرور أو الادعاء، فأنا لا أتبجح، بل أتكلم عن حقيقة معروفة.

إن النقوش الفريدة التي تشبه سجادة كلدانية على فرائي، لا نظير لروعتها إطلاقاً عند أي أنثى من جنسي، والدليل على صدق أقوالي أن سيد القطيع "إبهام" قد اختارني زوجة أبدية له.

كل الإناث مقارنة بي هن قبيحات، وعددهن بالمناسبة ليس هيناً، فتعداد قطيعنا يربو على الخمسين ألف فقمة.

الحلقات التي على فرائهن بشعة متنافرة، والنقوش عشوائية تفتقر إلى التناغم واللمسة الساحرة، لذلك أراهن جميعهن مشوهات، ومحرومات من مسحة الجمال الطبيعية.

أنا وحدي من تدخلت يد العناية الإلهية لتحول ظهري إلى لوحة فنية خارقة الجمال، وكأنما أنامل رسام الملك الفرعوني هي التي قامت بتزييني!

أتذكرون لوحاته في مدينة "طيبة"؟ إن ظهري أعجوبة فنية كلوحاته أو أجمل، لأن جمالي هو الذروة العليا لفن الرسم عموماً.

* قاص وروائي من اليمن.

أنا فقمة مثقفة، الأكثر ثقافة على الإطلاق، باستثناء زوجي "إبهـــام" طبعاً، ولدي أحلامي العريضة التي أتمنى تحقيقهـــا في هذه الحياة، قبـــل أن يغيبني الموت.

في الظاهــــر أبدو فقمة عاديـــة كملايين الفقمات الأخريات، ولكنني لســـت كذلـــك؛ لأنني أحمل في داخلـــي طموحات عظيمة، لا تخطر ببال أية فقمة غيري.

لقد أمضيت معظم فترات حياتي في الأســـفل، في المياه الباردة، وأعرف أن البشر يعيشون في الأعلى (اليابســـة)، وبعضهم يســـكن عالياً جداً فوق قمم الجبال.

هـــذه المعلومـــات التي حصلت عليهـــا بصعوبة من زوجـــي "إبهام"، نمّت في نفســـي رغبة ملحة تفوق التصور للحياة في مـــكان آخر، غذت حلماً جميلاً بالعيش في بحيـــرة جبلية مياههـــا عذبة، ودرجة حرارتها معتدلة، يتجمد ســـطحها شـــتاءً، ويدفئ قاعها صيفاً.

لقد أردت بشـــدة تغيير موطني؛ كرهت الحياة هنا في الأسفل، حيث كل شيء هو فوق رأسي.

أتمنى لو أصحو من النوم وأجد نفســـي أعيش في بقعـــة عالية، قريبة من الســـماء، فأســـمع ضجيج العالم يمر من تحتي، وأنا في منأى عنه.

لا أطمـــع أن تتحـــول زعانفي إلـــى أجنحة، لأحلق فـــي الفضاء كالطيور، ولكنني أبذر في باطني أملاً شريفاً في الاقتراب من سقف العالم.

وبســـبب طموحي هـــذا غير المســـبوق، فكرت في الرحيل، وأن أزيد وزني ثلاثة أضعاف، ثم أســـافر جنوباً، إلى أن أعثر على بحيرة جبلية أستقر بها.

كنت أخطط للرحلة ســـراً، وبما أني وزوجي "إبهام" لا نكاد نفترق عن بعضنا حتى ســـاعة واحدة، فقد فكرت أن أفضل وســـيلة لإشغاله وصرف اهتمامه عني، هي أن أزوّجه بخادمتي "وسطى" ليتلهى بها، ولكيلا يحزن قلبه جداً عندما أفارقه.

فاتحته فـــي الأمر، وتحججت بأننـــي فقمة عقيم محرومة مـــن الذريـــة، وأن زواجه مـــن خادمتي، سيعطيه نسلاً يحفظ له ذكراه بعد وفاته.

العجوز الماكر كان يعارض مقترحي بشفتيه، وخطمه يبرق من السرور!

وبعـــد أن ألححـــت عليه، غـــرز فكه فـــي الرمل، وخضع مبدياً موافقته وهو يتنهد، وكأنما سأزوجه بالإكراه!

وحين أطل موسم التزاوج في شهر مارس، اجتمعنا على الشـــاطئ بأعداد هائلة، وقام الذكور الأشداء الذيـــن هم في عنفوان الشـــباب بالتقاتل والمبارزة، لفتح شهية الإناث للتلقيح.

وأما أنا فقد سحبت خادمتي "وسطى" الفتية البكر من ساحة الذكور المتحاربين، وأتيت بها إلى زوجي "إبهام" ليضاجعها.

الملعونـــة كانـــت تبكي حـــين جرجرتها رغـــم أنفها المفلطح، لأنهـــا كانت ترغب في ذكـــر فقمة قوي، يهوي عليها حتى تغيب عن الوعي.

صحيـــح أن زوجي "إبهـــام" قد تقدمت بـــه الأيام، وشـــارف عمره على السادسة والثمانين، إلا أنه ما زال يحتفظ ببضع شـــرارات تحت بطنه المترهل..

إذ تبـــين بعد زمن قصير أن الخادمة "وســـطى" قد حملت. عرفت ذلك من تغير لون خطمها المخروطي الشكل واسوداده إلى درجة مقرفة.

أخبـــرت زوجـــي "إبهـــام" بالأمر، فأشـــرق وجهه بالسعادة، وأسرع إلى الخادمة "وسطى" يتودد إليها ويتشمم زعانفها العفنة.

تمرغ هذا الشـــيخ الذي لا يستحي بين الرمل أمام ناظري "وسطى" كصغار الفقم، وهو يضحك ويعوي كالمسطول، ثم راح يتمسح بفرائها، ويتذلل إليها إلى درجة تثير الشفقة.

وحدث الذي كنت أخشاه! فطلب مني "إبهام" العناية بالخادمة والاهتمام بصحتها، وأمرني أن أجلب لها غذاءها من الطحالب والأعشـــاب البحرية، خمس مرات في اليوم.

لـــم أنـــدم في حياتي على شـــيء كمـــا ندمت على فعلتي هـــذه، فالخادمة الوضيعة التي كانت تنظف مؤخرتـــي من بقايا البراز، أصبحت تشـــمخ بأنفها

عليّ، وتعيرني بأنني عاقر كأرض سبخة.
أمـرت أن أقـوم بكنـس موضعها على الشـاطئ وتسـويته، وأن أدفئه بجسدي حتى تعود من نزهة الغـوص التي تقوم بها مع زوجي المتصابي الطاعن في السن.
بكيت حتى تورم وجهي، وأوجعني قلبي من الحزن. كنت أتألم صامتة، وأعاني مـن الإحباط والمهانة، وأتجرع المرارة كأمواج المحيطات، ومشـاعر القهر تسـرع بي إلى شـيخوخة رذيلـة، فصرت أتحرك ككتلة شحم ثقيلة لا روح فيها.
كل شـيء صار في عيني قاتماً موحشاً، وما أحشو به فمي لا طعم له، لدرجة أنني تمنيت الموت.
شـكوت إلى زوجي "إبهام" تكبُّر الخادمة وغرورها، وتعمدها إذلالـي وإهانتي، والتصغير من مقامي.. فإذا به يُصعر خده ويلوذ بالصمت!
لم يتـركا لي خياراً آخر؛ نزلـت إلى مياه المحيط، وغصـت إلى عمق مائة وخمسـين متـراً، ودعوت "سـيد البحار" أن يقابلني، فاسـتجاب لي، وأرسل أحد حجابه.
تظلمت إلى الحاجب من زوجي "إبهام" الذي فضلته على نفسي، ورميت بخادمتي إلى حضنه، فأهملني وتجهم في وجهي.
سـألني الحاجب إن كنت أريد إبلاغ "سيد البحار" بأمر آخر؟
تفكرت قليلاً، وقررت إغفـال ذكر الخادمة بالمرة، وبـدلاً من ذلـك، صارحت الحاجـب بأمنيتي في الحيـاة، وهي أن يسـاعدني "سـيد البحـار" في الانتقال إلـى بحيرة جبلية عذبة، أعيش فيها بقية أيامي.
اسـتغرب الحاجـب من طلبـي الثانـي، ولم يعلق بحرف، ثم هبط إلى الأسفل في لمح البصر.
عـدت أدراجي إلى الشـاطئ بعد غـوص مرهق، واستلقيت على الرمال منتشية، وأنا أشعر بأن آمالي العظيمة في سبيلها إلى التحقق، وأن صعودي إلى "بحيرة الميعاد" لم يعد مستحيلا...

❖ ❖ ❖

تلقيت من "سيد البحار" رسالة أثارت قلقي، وبعثت في نفسي أشد الاضطراب.
لقد أمرني أن أذهب للقائه في خليج مهجور، يبعد مسافة شهر عن موطني.
شـككت بأن زوجتـي الغيورة "سـبابة" لها علاقة باسـتدعائي، فأخـذت ألاطفها وأسـتدرجها في الكلام، ولكنها لم تفه بجملة مفيدة، وكأنها وضعت على بوقها قفلا.
لا بد لي من الاعتراف بأن زوجتي "سـبابة" تملك عقلاً راجحـاً، وهي أذكى فقمة فـي القطيع كله، ولذلك لا أسـتبعد أن تكون قد دبرت لي مكيدة في الخفاء.
لم يعد بوسعي سوى الرحيل.
أكلـت ضعف الكميـة التـي اعتـدت تناولها من الأعشـاب البحرية، لأختزن في جسـدي شـحماً إضافيـاً، وأوصيت "سـبابة" أن تراعي "وسـطى" فـي غيابي وتعتني بها، ثم قفـزت إلى الماء محركاً زعانفي القدمية بأقصى سرعة.
وخلال شـهر من السفر المستمر، تعرضت لمخاطر الافتراس من أسماك القرش، ولمصاعب هائلة من زمهرير العواصف الثلجيـة، وفقدت نصف وزني، لأنني لم أجد وقتاً لأفتش عن غذاء يناسبني.
وفي المـكان المحـدد، غصـت إلى عمـق مائتين وخمسـين متراً، حيث تنتشـر كهوف مظلمة يلفها صمت أبدي.
من أعماق مجهولة ظهر "سيد البحار" مكللاً بالنور، تقدم نحوي دون أن يصدر أي صوت عن المياه التي يخترقهـا، فارتعشـت من الخوف، وتسـاءلت في نفسي: كيف أمكنه أن يفعل هذا؟
حدق فيّ برهة طويلة، وكأنه يزن كل صغيرة وكبيرة تتعلق بي، ثم قال وصدى صوته يُسمع في كل بحار الدنيا: "حكمنا على الفقمة وسطى بالنفي".
اقشـعر بدني مـن هـول كلماته وقوة سـلطانها، وأحسست بعرق بارد يسيل من زعانفي، بالرغم من أن درجة حرارة المياه منخفضة جداً.
طفـت ببصري الزائغ في ظلمـات المحيط التي لا

آخــر لها، وقلت بصوت كســير ضعيــف: "لكن... أليس حكمك قاسياً!؟".
رد "سيد البحار" بحزم: "لا تراجعني في أحكامي.. خذها إلى القطب الشمالي واتركها في وادي الدببة البيضاء".
شــعرت بالألم يعتصــر قلبي، وانفرطــت دموعي ساخنة، وقلت متوســلاً: "الرحمة يا ملك الأعماق الباردة! الدببة البيضاء ستفترس زوجتي الحامل".
بان عرق الغضب في جبين "ســيد البحار"، فأرسل موجة عملاقة، حملتني إلى الشــاطئ، وألقتني من شاهق على ظهري.
رحت في غيبوبة، لم أفق منها إلا في ساعة متأخرة من اليوم التالي.
نهضت وأنا أحس بأوجاع لا تطاق، تنبعث من سائر أجزاء جسدي الذي تعرض لرضوض عنيفة.
كنت أتنفس بجهد، وأصدر صفيراً مزعجاً، مدركاً أن رئتيَّ قد تأذتا من أثر السقطة.
تقويــت بقليــل من المحــار، أكلته وأنــا أعاني من الغثيــان. وبرغــم آلامي الفظيعــة ، تحاملت على نفسي وبدأت رحلة العودة.
طيلة الطريق وأنا أفكر في المصيبة التي وقعت على رأســي، وكيف أخبر زوجتي "وسطى" بالأمر؟ وهل ستوافق على الذهاب إلى القطب الشمالي، ووادي الدببة البيضاء تحديداً؟ أرى أن من المســتحيل أن توافق إلا إذا كانت مغفلة!
من هي الفقمة التي تستطيع أن تعيش وحيدة بعيداً عــن القطيع؟ وأية فقمة يمكنهــا أن تبقى حية في قفار القطب الشمالي الجليدية؟
أعرف تمــام المعرفة أننــي إذا أخذتها إلى هناك، فإنها ستموت هي وجنينها، لا محالة.
لقد حصلت على "وســطى" هدية من ســيد قطيع فقمــات آيســلندا، وأنا بدوري أهديتهــا لزوجتي، لتقوم بخدمتها.
لقد عاشت مع قطيعنا في غربة عن وطنها وقومها، وهــا أنا اليوم أنتوي أن أرمي بهــا إلى غربة ثانية أشد وأقســى من الأولى. ماذا جنت هذه المسكينة لنحكم عليهــا بغربتين مريرتــين؟! أي قدر موجع يلاحقها ولا يكف عن اختبار صبرها؟!
يبدو أن هناك قانوناً خفياً يســري على التعســاء، يلزم كل من يجرب مشــاعر الفــرح منهم أن يدفع ثمناً باهظاً، أن يتألــم أضعاف ما حصل عليه من شيء غير موجود أصلاً.
أثناء استراحاتي القصيرة على قطع الجليد العائمة، كنت أفكر في حبيبتي الصغيرة "وســطى" وأخفف من آلامــي بتذكر لحظاتنا الســعيدة، واســتعادة لقاءاتنا الحميمة.
كنت أســرّي عن نفســي بإغماض عينــي، وتخيل جسد "وسطى" الانسيابي الأملس، وفرائها الناعم اللطيف، وأتلذذ في ذهني بتقبيل بدنها المرن الفتي، حتى أكاد أشهق من النشوة.
رحلــة العودة التــي كان من المفترض أن تســتغرق شهراً، أخذت مني قرابة الشهرين، وعندما وصلت إلى شواطئنا، كانت زوجتي "وسطى" في استقبالي، واحتضنتني بشــوق ولهــف، ودمعــت عيناها من السرور.
بينما مكثت "سبابة" مستلقية على ظهرها، تستمتع بحمامها من أشعة الشمس، وتجاهلتني تماماً.
حــين نظرت إلى بطن "وســطى" أدركــت أنها في شهرها الأخير، وأن موعد ولادتها قد بات قريباً.
تمالكت نفسي ولم أبكِ، وهربت بنظراتي بعيداً عن بطنهــا المنتفخة، وتمنيت لو أني مت في ســفري، لكان أهون مما أنا مقدم على فعله بها.
أين الحكمة في معاقبة أمٍّ تحمل في رحمها جنيناً، بإقصائها إلى نهايــة الأرض؟! أي اختبار مجحف هذا للطاعة؟!
ماذا اقترفت "وســطى" من جرم لتنال هذا القرار الرهيب: النفي؟!
كل مــا يأخذونه عليها أنهــا تزوجتني، وحملت في رحمها نطفتي.
أتراهــم يؤاخذونها على اقترانها بســيد القطيع؟ أقسم أنني على استعداد للتنازل عن ألقاب السيادة كلها، في مقابل أن تكتب لها حياة معنا، ولا ترســل

إلى المنفى.
آه! إن نفسي ممزقة بين الحب والواجب. وعقلي متصدع مشوش، تدوّم فيه الأفكار السوداء الكئيبة.
في النهاية، عقدت العزم على أن أنفذ الأمر، وأتركها هناك لمصيرها المجهول.
طلبت منها أن تستعد للرحيل إلى مكان لم أحدده لها، فهزت رأسها موافقة، دون أن تستفسر بأية كلمة، حول وجهتنا المقصودة.
راحت تأكل بشراهة عجيبة، لتضاعف كمية الشحم التي تغلف جسمها، لأنها قد حدست على ما يبدو، أنني سأسافر بها إلى موضع بارد برودة مخيفة.
سرت شائعة في القطيع تذكر أن الغريبة التي في وسطهم ستهاجر. وقامت الإناث بتأليف أغنية ساخرة، كن يضايقن بها "وسطى" وأصبحن يناديننها بلقب "المهاجرة".
كنت أعلم أن زوجتي "سبابة" هي التي أشاعت هذه الأخبار، فجعلتني أشعر بالأسف لأنني ائتمنتها على أسراري.
وما هي إلا أيام قليلة حتى غادرنا أرضنا. كنا نقطع المسافات بالغوص في الماء، ثم نطفو على منصات الجليد للراحة واستنشاق الهواء. وبعد حصولنا على مقدار من أشعة الشمس المنعشة، كنا نعاود الغوص بأقصى سرعة.
كانت "وسطى" تبدو واثقة جداً من نفسها، بل ولاحظت أنها مبتهجة... لأنه لم يدر بخلدها البتة، أنني أضمر لها شراً، أو يمكن أن أتركها لوحدها في قلب الصقيع تصارع الموت.
إنها تحبني إلى حد العمى التام عن أي خطر يأتيها من ناحيتي، فهي تفترض فيّ الطيبة وحسن النية، وأنني لا يمكن أن أفكر مجرد تفكير في أذيتها.
لقد رمت كل الكلام الخبيث الذي سمعته من إناث القطيع دبر أذنها، ولم تشك لحظة واحدة في استقامتي ونبل أخلاقي.
لقد زادني يقينها الساذج هذا، حزناً على أحزاني، وأنزل بي ألماً مبرحاً يضرب صدري كبروق السماء.
يوماً بعد يوم، كانت "وسطى" تزداد ثقلاً، وتتعب أكثر فأكثر من الزحف على بطنها.
ورغم كل المتاعب التي كانت تحس بها، فإنها لم تشكُ من شيء، ولم تشعرني بأنها تتعذب من الألم، ولا حتى أصدرت أهة واحدة.. كانت فقط، تكز على أسنانها وتتبعني.
كنت أتمنى في قرارة نفسي لو أنها ترفض مواصلة السفر، وتستدير عائدة إلى موطن قطيعنا.
ليس من قيد يلزمها بالسير ورائي سوى الوفاء. آه! ليت الأوفياء لم يوجدوا! إنهم الأكثر إثارة للشفقة في دنيانا هذه! إن وفاءهم يدفعهم إلى الهلاك بعيون مغمضة.
الآن بت أفهم لماذا كان الأوفياء نادرين؛ لأن معظمهم في عداد الأموات!
بعد عناء شديد، اجتزنا صحراء التندرا، ودخلنا القطب الشمالي. وما هي إلا أيام حتى وصلنا إلى فج وادي الدببة البيضاء.
توقفنا هناك للراحة والنوم.
كانت "وسطى" قد ثقلت حركتها جداً، وبدأت تحس بالآم المخاض.
كنت قلقاً للغاية من أن تتزايد عليها الأوجاع ويجافيها الرقاد، فلا أتمكن من التسلل خلسة عائداً إلى مسقط رأسي.
ظللت أراقبها من تحت جفني المسدلين، وأنا أتصنع السبات العميق، إلى أن كفت عن الأنين وإطلاق الزفرات، فأغفت بالكاد، رغم التشجنات التي كانت تصعق جسدها.
بهدوء تام، زحفت على بطني، مستعيناً بزعانفي القدمية وزعانفي الجانبية، ووليت الدبر.
ولما كنت خجلاً من هروبي وتنكري للفقمة التي وثقت فيّ، فقد تلاشى شعوري بالإرهاق، وقطعت مسافة العودة في وقت قياسي.
لقد وصلت بالسلامة إلى الديار، ولم يسألني أحد عن "وسطى"، وكأنما القطيع كله كان متواطئاً معي في الجريمة.

لقد استفز القطيع أن يرى فرداً عادياً ينال مكانة عالية، فسعى بكل قواه لبتره من الجماعة وتدمير وجوده.

من كان يصدق أن "وسطى" ستذهب ضحية خلاف عائلي تافه، لا يستحق أن تراق من أجله قطرة دم؟!

كان شعور الخيانة يثقل على ضميري، ويعذبني في الصحو والمنام، وأحس أني نذل.. نذالة لا حدود لها.

مرت سنوات، ولم نسمع بأي خبر عن "وسطى"... لا شك أنها قد ماتت.

منذ تلك الحادثة، لم أعرف طعماً للسعادة، ولا كفت عيني عن الدمع، وصرت أرتعش لا إرادياً، وأفزع من أقل صوت.

لقد أذنبت في حق زوجتي "وسطى" وجنينها الذي هو من صلبي، وسلمتها وأنا في كامل وعيي لفكوك الدببة البيضاء المفترسة.

إن مشاعر المرارة التي ترسبت في روحي لن يمحوها الزمان مهما طال، ولن أصفح عن نفسي إلى الأبد.

آه منك أيتها الحياة! كم أنت ثمينة، وكم أنت هشة، وكم من المآسي في انتظارنا جراء سهولة فقدانك!!

❖ ❖ ❖

فتحت عيني وأنا أصرخ؛ لقد بدأ الدم يسيل مني.

توقعت أن يهب سيدي "إبهام" لتفقدي والاطمئنان عليّ.

كنت أتأوه متلهفة إلى الإحساس بأنفاسه الحارة تدفئ وجهي، وإلى مداعبات فمه على وجنتي.

صرخت بكل قوتي، قلت في نفسي: لعله غارق في نوم ثقيل، بسبب إرهاق السفر...

أحسست برحمي ينفتح، وأن الجنين يندفع للخروج.

تلفتُّ حولي باحثة عن سيدي فلم أره. ارتعبت في البداية، ولكنني فكرت بأنه ربما ذهب ليجلب لنا طعاماً نقتات به، أو لعله يحاول العثور على طبقة رقيقة من الجليد ليفتح لي حفرة إلى الماء، لألوذ بها إذا ما حام حولنا خطر الحيوانات المفترسة.

كانت الشمس ساطعة، وفي الأفق تلوح جبال مكسوة بالجليد.

لا حياة في هذا المكان، إنه مقفر تماما.

كم هو الفارق شاسع بين وضعي الآن، حيث أكاد أعجز عن الحركة، وبين حالتي قبل عشرة أشهر! ليلة عرسي أذهلت القطيع برقصي البديع على قدمي الخلفيتين، وبحركاتي البهلوانية الصعبة.

كنت من فرط الحبور أحس بنفسي خفيفة كريشة طائر تسبح في الهواء! لقد تشقلبت، وهززت خصري، وجعلت رأسي يدور كالمروحة.

رقصي الوحشي المثير أيقظ شهوة جميع ذكور القطيع، وجعلهم يحسدون سيدي على امتلاكه لجسدي الفائر.

حين خلونا أخيراً داخل حدود أرضه، جعلته يدوخ من اللذة.. هو أسرّ لي بذلك! وشكرني من أعماق قلبه على البهجة الفائقة التي وفرتها له في آخر أيامه.

عفواً! هو الذي يردد دائماً أنه في آخر أيامه، وكل إناث قطيعنا الشابات يعتقدن ذلك أيضاً، ولكنني أنا التي جربته، أعرف أية طاقة مهولة يمتلكها!

بعد شهر واحد ظهرت عليّ أمارات الحمل. وحين علم سيدي "إبهام" بالنبأ، اغرورقت عيناه بالدمع، وراح يقبلني في كل أجزاء جسدي.

تجمعت حولنا الفقمات، وراحت تهنئه، وكلها تمنى لسيد القطيع نسلاً طيبا.

في الموقف، سحب سيدي "إبهام" نفساً طويلاً، وضغط بعضلاته القوية على ثقوب أنفه وأغلقها، ثم غاص في الماء إلى أعماق لا يقدر أحد غيره على الوصول إليها، وبعد ساعة، صعد إلى سطح الماء وفي فمه هدية لا تقدر بثمن: ناب سمك القرش!

يقال، وهذا منقول عن أجداد أجدادنا، أن الفقمة التي تبتلع ناب سمك القرش لا يمسها سوء من

الضواري المفترسة في البر والبحر.
بالطبع ابتلعت ناب سمك القرش في الحال.
وفي يوم من الأيام، غادر سيدي "إبهام" فجأة إلى مكان مجهول.. سرت شائعات بين القطيع أنه ذهب لملاقاة "سيد البحار" الناقم عليه لأنه تزوجني.
لم أصدق، لأنه لا يمكن لـ "سيد البحار" أن يتأفف من خادمة، أو يفكر في زواجها من سيد القطيع من زاوية طبقية مثلنا؛ إنه "سيد البحار" العظيم، فليس التفاوت الطبقي مما يعنيه، أو يدخل في حسابه.
وبعد ثلاثة أشهر تقريبا، رجع سيدي "إبهام" من سفرته متكدراً لا يكلم أحداً، ومتعباً جداً وكأن عمره زاد في فترة قصيرة مائة عام.
حاولت أن أكلمه، فكان يشيح بوجهه عني، ويهرب بنظراته، ولا ينظر في عيني.
أحسست بأنه قد حصل تبدل عميق في مشاعره نحوي.
مرة أخرى تناقلت الأفواه الثرثارة أخباراً ملفقة، بأنه ينتوي تهجيري إلى أرض قطيع آخر.
أثناء غيابه، تعرضت لمعاملة قاسية من ضرتي "سبابة".
وبعد عودته، تمادت "سبابة" أكثر في أذيتي، وهو من جانبه لم يفعل شيئاً لمنعها من ذلك.
هذه العجوز المخرفة تغار مني، وتود لو تأكلني بأسنانها.
تظن نفسها ملكة جمال القطيع وهي مجرد نفاية.
ورغم أنها مريضة ومرشحة للموت في أية لحظة، لكنها ما زالت شبقة، ومتعطشة للجنس بصورة مقززة.
لم تعد تفرز هرمونات أنثوية، ومبيضها جف وتلف، ولكنها تغالط نفسها، وتصر أن بمقدورها إنجاب ذرية.
زعمت أن بطريقاً عرافاً قرأ مستقبلها، وتنبأ لها بأنها ستلد الذكر الذي سيرث رئاسة القطيع.. ومن يومها وهي تكني نفسها بكنية "أم بنصر"، وتقول إن هذا الاسم هو المحبب إلى قلب "سيد البحار"!

ولكن بما أن نبوءة البطريق لم تتحقق، وأنا التي سأنال شرف إنجاب ولي العهد، فإن هذا يفرض تغييراً في المراتب، فأصير أنا السيدة الأولى في القطيع، وعلى "سبابة" أن تقوم على خدمتي وتخضع لي... أليس هذا هو الحق؟! أليس من المنطقي أن ترعاني أنا ووليدي، وبالأخص لأنها عقيم وليس لديها ما يشغلها؟!
ألا ليتها ماتت هذه البهيمة المنتنة. لا أدري ما الذي حاكته لي في الظلام... لكن قلبي منقبض جداً من ناحيتها، وأحس أنها تسعى لهلاكي، ويبدو أن هذه السفرة من تدبيرها... لقد وضعت خطة خسيسة للخلاص مني... ولا أعرف ما إذا كان سيدي "إبهام" مشاركاً في مؤامرتها ضدي.. هل يعقل أن يتآمر بعلي الحبيب عليّ؟! لقد اختلط كل شيء في رأسي.
لكن لا... من الممكن أن أشك في نفسي ولا أشك في سيدي.
تجمعت الغيوم وتلبدت، وغاب وجه الشمس، فشعرت بخوف شديد.
تأخر سيدي... لم يعد... رياح باردة جداً هجمت عليّ حتى كدت أتجمد.
داهمتني خواطر سوداء، وتخيلت أن دباً جائعاً قد افترس سيدي... جرت الدموع في عيني، ورجف قلبي من هذه الخيالات المفزعة.
قررت أن أغادر مكاني وأبحث عنه.
زحفت إلى تل قريب، تسلقته بما تبقى فيّ من قوة، وأرسلت بصري في الجهات الأربع، وليتني لم أفعل، فقد خاب أملي خيبة شديدة.. سيدي ليس له أثر... اختفى تماما.
مكثت زمناً أعلى التل أراقب الأراضي الجليدية الجرداء، لعلي ألمح سيدي، ولكنني لمحت دباً أبيض ضخم الجثة، فلذت بالفرار، وأسرعت بالعودة إلى مكاني الأول.
عاودتني الزفرات أقوى هذه المرة، وندمت لأنني بددت الوقت، ولم أحفر في الجليد حفرة تصلني بماء المحيط، لأقفز إليها في حالة الطوارئ.

فكرت أن أبدأ بالحفر عقب الولادة مباشرة.
المشكلة أنه إذا هاجمني دب، فقد أستطيع أنا النجاة منه بالقفز إلى الماء، ولكن صغيري لا يمكنه ذلك؛ يحتاج إلى أسبوع على الأقل، حتى يتعلم الغوص في الماء ومن ثم إنقاذ حياته.
كيف يمكنني المحافظة على الصغير مدة أسبوع، والدببة المهووسة باللحم تجوس هذه البقعة النائية؟ هل سأعيش أحد عشر شهراً لأتمكن من إرضاعه؟ كيف سيعيش إذا افترسني وحش من الوحوش؟ إنه يحتاجني ثلاث سنوات أرضعه وأرعاه حتى ينضج وتكتمل قوته.
ربما ينجو من الموت إذا حفرت له كوة في الجليد تخفيه عن الأنظار.
سمعت قهقعة دب.. تلفت إلى جهة الصوت فلم أبصر أحدا.
سمعت قهقعة دب من جهة أخرى، فنظرت فإذا بي أرى سحاباً أبيض يجري قريباً من الأرض كقطيع من الدببة البيضاء.. انخلع قلبي، وفقدت السيطرة على مخاوفي.
سمعت قهقاع الدببة يأتي من كل الجهات، فأخذت أدور حول نفسي كالمسوسة، وأنا أرتجف من الرعب.
تمزق درب الحياة.. وتناثر دمي على الثلج الأبيض حاراً يتصاعد منه البخار، وشعرت برأس الصغير "بنصر" يرتطم بالجليد، ويطلق صرخاته الأولى.
كنت عاجزة عن دفع وليدي خارج رحمي، فقواي خائرة، والخوف الشديد يصيب أعضائي بالخذلان، فلا أقدر أن أتحكم فيها.
كنت بين الحياة والموت، وانتابتني هلاوس كثيرة لا يربطها رابط، وشعرت أن العالم يدور من حولي.
صرت أدرك أن المنطقة مسكونة بالدببة البيضاء، وأنني إذا صرخت، فسوف أنبهها إلى مكاني.. ولكنني رغم هذا الخطر الجسيم، قررت أن أصرخ وأنادي على سيدي لعله يسمع استغاثتي فيأتي: "إبهام! إبهام! إبهام!...".
كررت مناداته حتى بح صوتي.. ولكنه لم يظهر.. أبداً لم يظهر.
لقد ذهب بعيداً.. بعيداً جداً.. وتركني وحدي.
شعرت بوحشة شديدة لا يطيق تحملها أي كائن حي، وأطبق على روحي كمد هائل، ثقيل كثقل الجبال سحقني سحقا.
غرزت رأسي عميقاً في الثلج، فشعرت ببرودة مميتة تتسرب إلى كياني المشطور، ورأيت بعين خيالي سيدي "إبهام" يقترب مني مبتسماً.. فهمت من نظرته أنه يريد وضع فمه في فمي ليقبلني.. فتحت فمي على اتساعه، فازدردت ثلجاً، وأجهشت